

أسباب الإجمال وما يحصل به البيان

بحث في علوم القرآن

إعداد/ أحمد محمد عيسى

قسم الدعوة وأصول الدين

كلية العلوم الإسلامية - جامعة المدينة العالمية

شاه علم - ماليزيا

tamimi@mediu.edu.my

خلاصة— هذا البحث يبحث في أسباب الإجمال وما يحصل به البيان.
الكلمات المفتاحية: الإجمال، البيان.

المقدمة

ذكر السيوطي رحمه الله تبارك وتعالى في كتابه "الإتقان" عدة أسباب للإجمال، وذكر أمثلة على ما ذكر، وليحسن بنا أن نقف على ما قاله الإمام السيوطي رحمه الله تبارك وتعالى.

موضوع المقالة

أ- أسباب الإجمال: ذكر السيوطي رحمه الله تبارك وتعالى في كتابه "الإتقان" عدة أسباب للإجمال، وذكر أمثلة على ما ذكر، وليحسن بنا أن نقف على ما قاله الإمام السيوطي رحمه الله تبارك وتعالى.

فقد ذكر أسباباً للإجمال كثيرة؛ منها: الاشتراك، نحو قول الله تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ} [التكوير: ١٧] فلفظ {عسعس} وضع للإقبال والإدبار، أعني: إقبال الليل وإدبار الليل، أو إقبال النهار وإدبار النهار، فلاشتركا هنا كان سبباً في الإجمال.

وكقول الله تعالى: {ثَلَاثَةٌ قُرُوءٌ} [البقرة: ٢٢٨] فكلمة القرء أيضاً كلمة مشتركة تطلق على الحيض وعلى الطهر. وكذلك قوله تعالى: {أَوْ يَغْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ} [البقرة: ٢٣٧] الذي بيده عقدة النكاح إما أن يكون هو الزوج، وإما أن يكون هو الولي، فإن كلا منهما بيده عقدة النكاح، لما كان اللفظ مشتركاً بين أكثر من معنى كان الإجمال أو جاء الإجمال هكذا.

أيضاً من أسباب الإجمال الحذف، وذلك كقول الله تعالى: {وَتَرَى غُيُونَ أَنْ تَنكُحُوهُنَّ} [النساء: ١٢٧] هنا حذف، ويحتمل أن يكون المحذوف حرف "في" أو "عن" فيحتمل أن يكون الكلام: وترغبون في أن تنكحوهن، ويحتمل هو: ترغبون عن أن تنكحوهن.

ومن أسباب الإجمال أيضاً: اختلاف مرجع الضمير، وذلك كقول الله تعالى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: ١٠] يحتمل عود ضمير الفاعل في يرفعه؛ إلى ما عاد عليه ضمير {إليه} وهو الله تبارك وتعالى، ويحتمل عوده إلى {العمل}، والمعنى أن العمل الصالح هو الذي يرفع الكلم الطيب، ويحتمل عوده إلى {الكلم الطيب} أي: أن الكلم الطيب - هو التوحيد - يرفع العمل الصالح؛ لأنه لا يصح العمل إلا مع الإيمان.

ومن أسباب الإجمال أيضاً: احتمال العطف والاستئناف، وذلك كما جاء في قول الله تبارك وتعالى: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا} [آل عمران: ٧] فهنا يحتمل في الواو في قوله تعالى: {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} ويحتمل أيضاً أن تكون للعطف، يعني: عطف الراسخون في العلم على ما قبلها.

ومن أسباب الإجمال أيضاً: غرابة اللفظ، وذلك كقوله تعالى: {فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ} [البقرة: ٢٣٢]. ومن أسباب الإجمال أيضاً: عدم كثرة الاستعمال الآن، وذلك كقوله تعالى: {يُلْقُونَ السَّمْعَ} [الشعراء: ٢٢٣] أي: يسمعون. وكقوله: {ثَانِي عَطْفِهِ} [الحج: ٩] أي: متكبراً. وكقوله: {فَأَصْبَحَ يَقْلَبُ كَفَيْهِ} [الكهف: ٤٢] أي: نادماً.

ومن أسباب الإجمال: التقديم والتأخير، وذلك كما جاء في قول الله تبارك وتعالى: {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى} [طه: ١٢٩] أي: ولولا كلمة وأجل مسمى لكان لزاماً. ومثله ما جاء في قول الله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا} [الأعراف: ١٨٧] أي: يسألونك عنها كأنك خفي.

ومن أسباب الإجمال قلب المنقول، نحو: {وَطَوَّرَ سَبِيحِينَ} [التين: ٢] أي: سبحاء، وكقوله أيضاً: {عَلَىٰ إِنْ يَأْسِينَ} أي: على إلباس، الآية وهي قول الله تعالى: {سَلَامٌ عَلَىٰ إِنْ يَأْسِينَ} [الصافات: ١٣٠].

ومن أسباب الإجمال: التكرير القاطع لوصول الكلام في الظاهر، كنحو قول الله تعالى: {وَالَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ} [الأعراف: ٧٥].

ما يحصل به البيان مع التمثيل:

أود أن أذكر هنا ما يحصل به البيان، يعني: لو أن هناك لفظاً مجملاً فبأي شيء يحصل بيان هذا المجمال؟

أقول وبالله التوفيق: يحصل البيان بالقول والفعل.

الأمر الأول: القول، بأن يقول المتكلم أو من علم مراد المتكلم المراد بهذا الكلام كذا، يعني: جاء كلام مجمل فيبينه المتكلم أو من علم مراد المتكلم بكلام آخر. ومثال ذلك ما جاء في قول الله تعالى: {الْقَارِعَةُ} (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ} [القارعة: ١-٣] هذا إجمال بيّنه الله تبارك وتعالى بقوله: {يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ} [القارعة: ٤] فبين سبحانه وتعالى أن القارعة تكون ذلك اليوم بهذه الصفة العظيمة، وهي كالفرش المبتوث، وهذا بيان بالقول من المتكلم أيضاً.

وكذا قول الله عز وجل: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ} [الانفطار: ١٧، ١٨] بيّنه سبحانه وتعالى بقوله بعده وهو: {يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ} [الانفطار: ١٩]. ومثاله أيضاً ما جاء في قول الله تبارك وتعالى: {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ} [المدثر: ٣٠] فهذا مجمل؛ لاحتمال أن هؤلاء ملائكة أو آدميون أو شياطين أو غيرهم، ولكن الله عز وجل بين ذلك بقوله: {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً} [المدثر: ٣١] فبينه رب العالمين سبحانه وتعالى بالقول، فبعد ما قال: {عليها تسعة عشر} وهو مجمل غير مبين، بيّن أن هؤلاء التسعة عشر من الملائكة.

ونظائر هذا في القرآن الكريم والسنة الشريفة كثير.

ولما قال سبحانه وتعالى: {وَأَعْدُوا لَهُمْ مَا اسْتَنْعَمْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ} [الأنفال: ٦٠] كانت القوة مجملاً، فبينها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «ألا إن القوة الرمي» لأن القول لما كان بيّناً في نفسه جاز أن يبين غيره، كما قلنا في الماء الطهور لما كان يدفع النجاسة عن نفسه جاز أن يدفعها عن غيره إذا كان كثيراً.

إذن البيان بالقول من الأمور التي يحصل بها البيان، وقد ضربت أمثلة على ذلك من القرآن الكريم، ومن سنة النبي الأمين صلى الله عليه وآله وسلم.

الأمر الثاني الذي يحصل به البيان: البيان بالفعل.

والبيان بالفعل يكون بالكتابة وبغيرها، فالبيان بالفعل بالكتابة كتابة النبي صلى الله عليه وسلم، وكتابة الخلفاء الراشدين بعده وغيرهم من أهل الولايات إلى عمالهم في الصدقات وغيرها من السياسات، ولأن الكتابة تقوم مقام اللسان في تأدية ما في النفس فكانت بياناً، فالبيان كما يتم بالقول يتم بالفعل.

ومن البيان بالفعل أن يكتب الإنسان كتاباً يبين فيه أمراً مجملاً، وقد دل على ذلك ما جاء في قول الله تبارك وتعالى: {الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ

(٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ { الرحمن: ١- ٤ } بَيَّنَّ اللهُ عز وجل بقوله: { الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } [العلق: ٤، ٥] بينه رب العالمين سبحانه وتعالى بذلك، فالبيان بالقلم إذن من جملة البيان الذي علمه الله تبارك وتعالى للإنسان، وهو يشمل بيان النطق.

إذن نستدل بقوله تعالى: { الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ } على أن البيان كما يكون بالقول يكون بالفعل؛ لأن الله عز وجل في سورة العلق قال: { الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ }.

ومن البيان بالفعل أيضاً الإشارة، كما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه آل من نسائه شهراً، فأقام في مشربة له تسعاً وعشرين يوماً، صلوات الله وسلامه عليه، ثم دخل عليهن، فقيل له: إنك آليت شهراً، فقال: «الشهر هكذا وهكذا وهكذا» وأشار بأصابعه العشر وقبض إبهامه في الثالثة صلوات الله وسلامه عليه، وهو بهذا يشير إلى أن الشهر أيضاً يكون تسعة وعشرين يوماً، وقد جاء ذلك صريحاً في حديث صحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «الشهر تسع وعشرون»، وهذا الحديث أخرجه مالك والبخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما، وهو بيان قولي.

تضمن هذا الحديث نوعي البيان القولي والفعلية صلوات الله وسلامه عليه. ومن البيان الفعلي ما جاء في قوله عليه أفضل الصلاة والسلام: «صلوا كما رأيتموني أصلي»، و«خذوا عني مناسككم» أي: انظروا إلى فعلي في الصلاة والحج فافعلوا مثله، فكان فعله عليه الصلاة والسلام فيهما - أعني في الصلاة والحج - مبيناً لقول الله تبارك وتعالى: { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ (٤٣) } وقوله: { وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ (١٩٦) } لأنه صلى الله عليه وآله وسلم بيّن لنا الصلاة بالفعل، فهو قد صلى أمام أصحابه، وقال لهم: «صلوا كما رأيتموني أصلي» صلوات الله وسلامه عليه، كما حج بهم وقال: «خذوا عني مناسككم». فالبيان هنا بيان بالفعل.

فإن قيل: بيان الصلاة والحج إنما حصل بقوله: «صلوا» و«خذوا». نقول لهؤلاء: ليس الأمر كذلك؛ إذ هذا اللفظ - أعني: «صلوا كما رأيتموني أصلي» أو «خذوا عني مناسككم» - لا يعلم منه تفاصيل أفعال الصلاة والحج، بل هو عليه الصلاة والسلام بيّن بقوله: «صلوا» و«خذوا» أن فعله مبين لتفاصيل الصلاة والمناسك، ولهذا قضى مناسكه صلى الله عليه وآله وسلم في حجته ركباً ليتعلم منه الناس، وقد كان يقف أمامهم صلى الله عليه وآله وسلم يسألونه.

ويمكن أن نستدل على ذلك لما قال صلى الله عليه وآله وسلم لعبد الله بن عباس: «يا غلام القط لي حصي» فلفظ له سبع حصيات، فوضعها صلى الله عليه وآله وسلم في كفه، ثم أشار إلى الناس قائلاً: «بأمثال هؤلاء فارموا، وإياكم والتنتع والتعمق والجدل، وعليكم بالعتيق».

فأخذ صلى الله عليه وآله وسلم الحجارة في يديه، ووضعها أمام أصحابه، وبيانه لهم صلى الله عليه وسلم ذلك بالفعل، دل ذلك على أن البيان يقع بالفعل.

ولكنه يمكن أن يرد على الاستدلال بهذا - أعني: بقوله «صلوا» و«خذوا» - عن سؤال أصح من السؤال السابق، وهو أن يقال: إنما أمرهم صلى الله عليه وآله وسلم بذلك أن يسألوه عن أحكام الصلاة والحج فيجيبهم عنها، فيكون البيان قولياً لا فعلياً، يعني: هو لما قال «صلوا» أو «خذوا» أمرهم بذلك كي يسألوه فيجيب صلى الله عليه وآله وسلم بالقول لا بالفعل، وكما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قام مقاماً فقال فيه: «لا تسألوني في مقامي هذا عن شيء إلا أجبتكم» والقصة مشهورة، فقوله: «خذوا عني» يعني بالسؤال يعني بالافتداء بالأفعال.

والجواب عن ذلك أن نقول: إن هذا وإن كان محتملاً لكنه خلاف الظاهر؛ لأن المنقول عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال لهم: «خذوا عني مناسككم» وهو متلبس بفعل المناسك صلوات الله وسلامه عليه كان يطوف ويسعى، وكان يقول هذه الكلمات صلوات الله وسلامه عليه، بل إنه عليه الصلاة والسلام كي يعلم الناس مناسك الحج بالفعل، أمر أن يبلغ الناس قبل أن يخرج للحج صلى الله عليه وسلم أن يعلم الناس أنه خارج للحج؛ حتى تقبل الوفود عليه فيحجوا معه، ويتعلموا منه الأحكام صلوات الله وسلامه عليه، وأمره لهم صلى الله عليه وآله وسلم بذلك في هذه الحالة - أعني: أمره بقوله: «خذوا عني مناسككم» - دليل على أن مراده بذلك اقتداؤه بأفعاله صلوات الله وسلامه عليه، عملاً بقرينة الحال، والله تعالى أعلم.

وما قلته في المناسك أقوله في الصلاة، فهو صلى الله عليه وآله وسلم علم أصحابه الصلاة بالفعل، وما ورد من أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيها وصف دقيق لصلاته دليل على أن البيان كما يكون بالقول يكون أيضاً بالفعل أيضاً، وكما يكون البيان بالقول ويكون بالفعل يكون بأمثاله ألا وهو الإقرار على الفعل.

وعلماء الحديث قد عرّفوا السنة الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقولهم: ما أُثِرَ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قول أو تقرير أو فعل، فما أقره صلى الله عليه وآله وسلم فهو من السنة، وهو بيان للفعل، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم أقر أصحابه على أمور فعلوها بين يديه صلى الله عليه وآله وسلم وسكت عنها، فأقراره على الفعل يكون بياناً لجواز هذا الفعل.

إذن يحصل البيان بثلاثة أمور: يقع بالقول ويقع بالفعل ويقع بالإقرار، وقد ذكرت أدلة ذلك من القرآن الكريم، ومن سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولكني أؤكد أن إقراره صلى الله عليه وآله وسلم على أمر من الأمور يعد بياناً لما أقره صلى الله عليه وآله وسلم، ويعتبر حجة يجب العمل بما أقره صلى الله عليه وآله وسلم.

المراجع والمصادر

١- ابن الجزري، أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي المعروف بابن الجزري، المتوفي سنة ٨٣٣، النشر في القراءات العشر، أشرف على تصحيحه ومراجعته للمرة الأخيرة، حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل، علي محمد الضباع، شيخ عموم المقارئ: بالديار المصرية.

٢- ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد القرطبي، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، دار ابن حزم، سنة النشر: ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

٣- ابن العربي، محمد بن عبد الله الأندلسي (ابن العربي)، أحكام القرآن لابن العربي، دار الكتب العلمية، سنة النشر: - رقم الطبعة: ١ ط: د.ت.

٤- ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، المعروف بتفسير ابن كثير، دار طيبة، سنة النشر: ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.

٥- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، دار المعرفة سنة النشر: ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.

٦- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان = تفسير السعدي (ط. دار السلام)، بتحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق.

٧- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مكتبة دار الكتاب العربي، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

٨- السيوطي، جلال الدين السيوطي عبد الرحمن بن الكمال بن محمد الخضير السيوطي، الحاوي للفتاوي، دار الفكر للطباعة والنشر، سنة النشر: ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.

٩- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، دار السلام، سنة النشر: ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.

١٠- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد بن المختار الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر سنة النشر: ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.

١١- القطان، دكتور مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، الناشر: مكتبة وهبة، رقم الطبعة: ١١، تاريخ الطبعة: ٢٠٠٠

١٢- العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، التبيان في إعراب القرآن، دار الفكر، سنة النشر: ١٤٢١هـ / ٢٠٠١ م.

١٣- الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، أسباب النزول، دار الكتب العلمية، سنة النشر: ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.